

كتاب الشهر

إلى الواجهة ضي كتاب جديد أمين نخلة... منسي من جيل الرواد

اهمية كتاب "ذكريات اديب العرب امين نخلة كما رواها لنازك باسيلا" انه يصيب عصفورين بحجر واحد: يوجه تحية الى امير النثر العربي موثقاً حياته بلسانه. كما يضيء على حقبة ملأى بالتحويلات السياسية والاجتماعية والثقافية في لبنان

اذا كان النقاد والشعراء العرب يختلفون حول قيمة امين نخلة (1901 - 1976) الشعرية، فانهم يجمعون على انه اسم استثنائي في تاريخ الادب العربي، وامير النثر بلا منازع نقله عبر كتابه "المفكرة الريفية" في الاربعينات الى مصاف اخر. جاء ذلك قبل بروز مرحلة الحداثة الشعرية والتنظير لها بعقد كامل. ذلك الاسم الذي شكل حلقة ربطت كبار الكلاسيكيين كخليل مطران والاختل الصغير (بشارة الخوري) ببواكير الحداثة الشعرية، لم يأخذ حقه في مماته كما في حياته. هو الذي رشحه امير الشعراء احمد شوقي (1868 - 1932) ليكون خليفته حين قال:

"هذا ولي لعهدي/ وقيم الشعر بعدي/
والعصر عصر امين/ خير ومطلع سعد/ وكل
من قال شعرا/ في الناس عبد لعبيدي".

وهو ايضا الذي وصفه الشاعر الكبير بدوي الجبل بأنه الشاعر اللبناني الاول في القرن العشرين. الا ان شاعرنا رحل بصمت بعد سنوات من انفضاض الاصدقاء عنه على اثر فقدانه الذاكرة، فانزوى في منزله مع رفيقة دربه من دون ان يحظى بالتكريم الذي يستحقه.

في السنوات الاخيرة، بدا كان هناك استفاقة مباحثة على هذا الكاتب الاستثنائي في تاريخ الادب العربي، اذ بدأت دور النشر اللبنانية تنكب على اعادة اصدار اعماله الكاملة ("دار صادر" - بيروت)، او المقابلات التي اجريت معه. "دار نلسن" من جهتها، وجهت تحية الى هذا الاسم المنسي من جيل الرواد عبر نشر كتاب "ذكريات اديب العرب امين نخلة كما رواها لنازك باسيلا".

الكتاب عبارة عن خمس مقابلات مهمة مع صاحب "المفكرة الريفية"، نشرت في

مجلة "الاسبوع العربي" عام 1972، لتلقي الضوء على حياة امين نخلة، وادبه، وعلاقته باجداده، ووالديه وزوجته وابنه وابنته، هو الذي قال: "والله ما في الوالدين كركتي/ ولا كفؤادي في الصدور رحيم". كما يضيء الكتاب على ارائه وعاداته وانخراطه في السياسة وصداقته برياض الصلح الذي بكاه يوم اغتياله وورثاه بقصيدتين من عيون الشعر، الى جانب علاقته بكبار رجال السياسة والادب في لبنان وسوريا ومصر وفرنسا.

منذ صدورها في الاربعينات من القرن الماضي، شكلت "المفكرة الريفية" صدمة ايجابية للشعراء والكتاب والمشهد الادبي العربي بشكل عام، وطبعت عشرات المرات، مثيرة الجدل والنقاش الادبي حتى عام 1960 فخلدت صاحبها، رغم تنوع الاجناس الابداعية والفكرية التي اشتغل بها، وطاولت حقول الشعر والنثر والنقد والقانون والتاريخ. اقلام كبار النقاد والمشتغلين في الادب، اكبت عليها تمحيصا ودراسة. مثلا، وصفها الشاعر العراقي محمد مهدي الجواهري بأنها "فتح في عالم الفن والادب". توصيفات كثيرة ابتكرت لها مثل "معجزة الادب" (انطوان قازان في "الجريدة" 20 اذار 1960)، و"الانجيل الادبي النخلي" (البير اديب في "الاديب" العدد 1 عام 1942)، و"اية من آيات اللسان العربي في الفصاحة والاسلوب" (جبران تويني الجدد في "النهار" 20 تشرين الثاني 1940)، وهي ايضا "انفاس في كلمات، وارواح في الفاظ، واحاسيس في سطور" (الكاتب العراقي ابراهيم صالح شكر في "الاخبار" العراقية 25 ايلول 1942)...

جاءت "المفكرة الريفية" قبل عقد تقريبا

من تبلور الحداثة الشعرية والتنظير لها، اي التحرر من القوافي والاوزان كمعيارين شكلين للشعر الحديث. وفي المضمون، قارب امين نخلة للمرة الاولى جماليات الريف - الحبيب على قلبه - كما لم يقارباها احد لا قبله ولا بعده. قاربها بنثرية تداني الشعر، حتى وصفها الامير شكيب ارسلان بأنها "شعر لا تعوزه الا القافية". كما كتب الاديب خليل تقي الدين: "امين في هذه المقاطع النثرية شاعر لا تنقصه القافية ولا الوزن، على غيبة القافية والوزن" ("الجمهور" 20 ايلول 1942).

واذا كانت "المفكرة الريفية" ادخلت صاحبها في التاريخ بصفته احد المجددين في النثر العربي، الا انها ايضا حجت اشتغالاته الفكرية الاخرى التي لا تقل اهمية عن "المفكرة". كان ابن الشاعر رشيد نخلة (1873 - 1939) امير الزجل اللبناني وناظم النشيد الوطني اللبناني، شاعرا ومحاميا وضع الكثير من المؤلفات في حقول اللغة والقانون، كما كان رجلا وطنيا وسياسيا من طراز رفيع انتخب نائبا عن منطقة الشوف عام 1946، وكاد ان يصبح رئيسا للجمهورية لولا اغتيال رياض الصلح كما ورد في الكتاب، خصوصا وان نخلة كان يحظى بشعبية عربية في الاوساط السياسية والادبية، ويشعر بانتماء الى لغة الضاد التي احبها وسحرته بلاغتها منذ ان اكتشف القرآن في مكتبة والده.

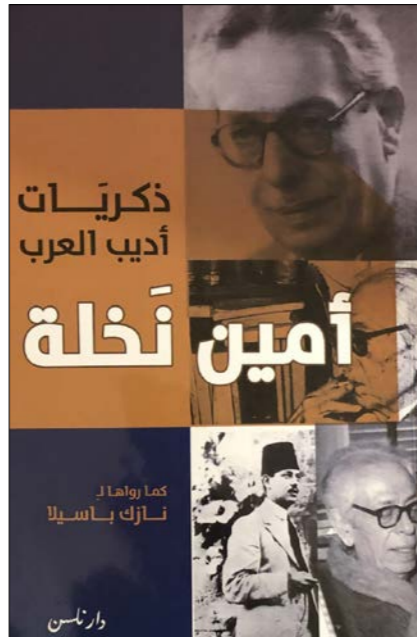
الكتاب الذي بين يدينا، يضيء على كل هذه المحاور في حياة امين نخلة، كما يكشف جوانب خفية في سيرته، مثل زوجته التي لم ترد في شعره يوما (مع ان شعره ارتكز الى ثلاثة موضوعات هي الغزل والطبيعة والموت)، ولم تظهر في المحافل والمناسبات

العامة الى جانبه. هكذا، تأخذنا المقابلات الخمس الى زوايا حميمة وشخصية في سيرته، على رأسها اصوله، فهو "المسيحي الموراني سليل الهاشميين".

يقول في واحدة من هذه المقابلات ان اسرة نخلة هي من "بني هاشم العرب الحسينيين. يتصل نسبها بالنبي العربي الكريم، وقد نزحت من الحجاز في الجيل السابع ولها في لبنان مئات السنين". وتتوقف المقابلة طويلا عند دور والده الشاعر رشيد نخلة في تفتح وعيه وذاقته الشعرية والادبية، هو الذي اورث ابنه حب الجبل ورائحته "ارضا وماء وسماء تتضوع في ادب امير الصناعيتين نثرا وشعرا". ظل امين نخلة امينا على تراث والده، واذا ما اراد العودة الى احلى ايامه، كان ينتقي من الخزانة النخلية ما كتبه والده الذي اسس حزبا سياسيا دعاه "حزب الثالث"، وعقد في عام 1913 مؤتمرا دعا فيه الى ضم دير القمر الى الشوف، وحرية الملاحة، وارساء البواخر الاجنبية في ميناء جونية، واقامة ادارة جمركية يعود دخلها الى الخزينة... طبعا، كانت العقابة نفيه الى فلسطين، ثم عودته متسترا الى الشوف حيث توارى عن الانظار، معلنا الثورة الاستقلالية المسلحة ومؤسسا عام 1918 "فدائيي لبنان" للاستقلال عن السلطنة العثمانية.

يتذكر امين نخلة هذه السيرة الصاخبة، ليعود بعدها الى الكنوز الادبية التي اكتشفها في مكتبة والده "فهو الذي امسك بيده ليطوف في رحاب القرآن، وفي ربوع الجاحظ وابن المقفع والامام علي في النثر. كما اصطحبه الى حدائق المتنبي والبحري واي نواس، وابن ابي ربيعة، والشريف الرضي وابن الرومي في الشعر"، في الوقت الذي كان فيه امين متبحرا في ادب اندريه جيد وبول فاليري وفيكتور هوغو. لعل هذه الخلطة بين الادب الغربي وعيون التراث العربي هي التي اسست لهذا الفتح النثري الذي قدمه في "المفكرة الريفية".

في الكتاب، تعرف ان امين نخلة ولد في مجدل المعوش، وليس في الباروك كما هو شائع، وبدأ دراسته في مدرسة الاخوة المریمیة في دير القمر، حيث كان استاذة



غلاف الكتاب.

شعر بانتماء الى لغة الضاد منذ اكتشاف القرآن في مكتبة والده الشاعر رشيد نخلة

الرئيس السابق الراحل كميل شمعون. الا ان الحرب العالمية الاولى اجبرت المدارس على اقفال ابوابها، فعينه الامير شكيب ارسلان مديرا لناحية العرقوب بين عامي 1916 و1917 ليكون اصغر حاكم اداري سنا.

لدى انتهاء الحرب، عاد الى مقاعد الدراسة في الكلية البطريركية في بيروت التي كانت في اوج ازدهارها. هكذا، تتلمذ على يد الشيخ عبد الله البستاني "إمام العربية ومحبتها في فقه اللغة". بعد المدرسة، يم شطر القانون بادئا بالحقوق الادارية التي نال فيها شهادة من معهد الحقوق الفرنسي في بيروت. الا انه لم ينه دراسة القانون في المعهد بسبب خلاف وقع بينه وبين الادارة، فقرر الالتحاق بالجامعة السورية في دمشق

حيث نال شهادة الحقوق. اولى قصائده نظمها وكان في الـ12 من عمره، نشرها في جريدة "النادي" البيروتية، ما دفع الاخلل الصغير الى القول: "اليوم ولد لنا شاعر".

بدأ امين نخلة حياته العامة في الصحافة عبر جريدة "الشعب" التي عطلتها سلطة الانتداب الفرنسي ثماني مرات لمواقفها المناهضة لها. في موازاة ذلك، اسس مكتبا للمحاماة اشتغل فيه طيلة ثلاثين عاما، الى جانب اشتغالاته الفكرية واصدارته الشعرية والنثرية. كان مقدرا بالتالي ان يدخل هذا المحامي الفصيح ميدان السياسة. نقرأ في الكتاب كيف تميزت نيابته بالهدوء بناء على "طلب رياض الصلح كي لا تتعكر امامه طريق الرئاسة الاولى". من يطلع على جلسات تلك الايام، يفاجأ بصمت امين نخلة مع انه كان واسع الاطلاع وواحد من اسيد اللغة. كان الصلح يراهن عليه رئيسا نظرا الى انفتاحه "على العرب والمسلمين" ويتمتع بشعبية كبيرة عند زعماء العرب ورجالاتهم ومثقفهم بفضل مكانته الادبية ونظرته الى وحدة المصير العربي، والتوق الى التحرر من نير الانتداب.

في هذا الشق، يتوقف نخلة عند لبنان ليصف التحولات السياسية التي مر بها، بلسان الشاعر. اذ يقول: "لم انظر يوما الى الاشياء والاحداث من خلال منظار اسود قاتم. فانا بحكم اطلاعي على تاريخ لبنان المكتوب وغير المكتوب، على ماضيه وحاضره، كنت وما زلت اؤمن بأن الاحداث تمر به كما لو كان هناك دائما عناية تسهر على هذه الواحة الخضراء الصغيرة في الخريطة العربية". اغتيال رياض الصلح عام 1951، دفع نخلة الى هجر السياسة والتفرغ للادب والشعر والمحاماة التي برع على منابرها بفصاحته ومرافعاته الرفيعة المسبوكة بعناية لغوية مدهشة.

الاهم في كل ذلك ان هذا الكتاب لا يؤرخ لمسيرة ادبية وفكرية غنية بطلها وجه من وجوه الرواد، بل انه يستحضر ويوثق وجوها واحداثا ومحطات من الحياة السياسية والاجتماعية اللبنانية في حقبة كانت ملأى بالتحويلات على مختلف الاصعدة.